كانت رحلة الرئيس إلى القدس (سلاما) من خلال القوة

أخشى أن تغلق إسرائيل باب السلام بيدها

حديث

كان الأستاذ شمعون شامير ، استاذ ، تاريخ اليهود فى مصر ، بجامعة تل ابيب ، قد زار مصر عدة مرات . وفى زياراته الأخيرة التقى بالرئيس انور السادات . وقد تحدث د. شامير فى الاذاعة والتليفزيون بإسرائيل عن اثر هذا اللقاء فى نفسه وفى تفكيره . ونشر عددا من المقالات عن الرأى العام المصرى والاسرائيلى عن السلام والخوف منه والخوف عليه .

وهذا المقال قد نشره فى صحيفة هآرتس الاسرائيلية . وترجمه هو الى العربية وبعث به الينا . فشكرا له .

شمعون شامير

رئيست مسألة العلاقات مع إسرائيل اولى المسائل التى تشغل بال المصريين . كما أن الموقف من السلام أيضا . من خلال إدراكى لهذه الحوقات وملابساتها . وخوفى مضطرا إلى بعض التعميم . فإنه يمكننى تلخيص انطباعاتى فى الموضوع (كما كان فى شهرى يونيو ويوليو) فى خمس عشرة نقطة .

إن رغبة الشعب المصرى فى السلام . وانطلاقا مصر إلى عهد السلام والقضاء على شبح الحرب . مازالت من المقومات الأساسية فى الموقف المصرى . وتشكل هذه الرغبة جزءا من الأجواء الوطنى . حتى إن معارضى الاتفاقية التى وقعت مع إسرائيل لايعقون ضرورة السلام . هذا الموقف يلقى تعبيرا قويا وواضحا فى جميع الأوساط ابتداء من الطبقات الشعبية حيث يفسرونه بالاستناد إلى تجارب الحياة وعبرها . وانتهاء بالرئيس السادات الذى يعبر عن التزامه العميق بسياسة السلام . وبحريها من التطورات الداخلية الهامة فى هذا العصر . كما يرى فى تطبيقها ثمرتها للإنجازات التى تمت فى عهده .

مازالت سياسة السلام . كما كانت فى أول عهدها فى السبعينات . سياسة واقعية حكيمة تستند إلى المصالح الحيوية لمصر والظروف الموضوعية فيها . فهى تهدف إلى خروج مصر نهائيا من دائرة الصراع المسلح وتصفيته من دمار وويلات (رغما فى ذلك الخطر الذى فى رأى بعض المصريين) .

أما على المستوى الفكرى فالغاية هى تمكين مصر من بلورة ثقافتها وتطويرها من جديد وبذلك تندمج سياسة السلام عضويا بالخطوط العريضة الاستراتيجية الشاملة لنظام الحكم فى مصر .

هكذا فإن السلام مع إسرائيل يقوم على أساس من المصالح المشتركة . وليس على تجارب ايديولوجى . فالمصريون لم يسلموا بالمبادىء الأساسية للحركة الصهيونية . كما أن مصطلح « الصهيونية » عند ذاته مازال يحمل فى طياته دلالات سلبية عندهم . وهناك بعض المصريين الذين يحاولون تسوية هذا التناقض القائم بين الطلمانية والايديولوجية عن طريق « التسويغ المنطقى » rationalization القائل بأن السلام بالذات هو الذى سيؤدى إلى تلاشى إسرائيل كدولة صهيونية ولكن هذا الرغم ليس شائعا هذه الأيام . إن مستوى العرفة عن إسرائيل وثقافتها وتاريخها مازال ضعيفا للغاية

وكما يبدو جليا من كل هذا . فإن السلام الذى وقعت عليه إسرائيل كان سلاما مع مصر . لا مع الرئيس السادات وحده . وفى أغلب الظن أن مصر ما كانت . لولا قدرة الرئيس السادات على اتخاذ القرار . تفلح فى ترجمة مصالحها إلى سياسة سلام كما أنها ما كانت لتستطيع لولا قيادته الحازمة . الدفاع عن هذه السياسة فى وجه الضغوط الخارجية والداخلية . ولكن هناك فى مصر اليوم فئة من القادة political elite الذين يؤيدون المبادىء الأساسية لسياسة السلام . وسوف يتوقف الأمر على مدى قدرتهم وشجاعتهم فى تحمل مصيرها الخطر . وفى مع ردة الفعل الاستراتيجية السياسية كلية ما فيما السلام مع إسرائيل .

إن شعور مصر بالثقة أمام العالم العربى وإحاطتها بتأييدها وتواجدها فى إرشاده إلى الطريق . لم يضعف مع الأيام . كذلك يرى مصريون كثيرون أن عدم عودة المقاطعة العربية وفى عودة الالوف من العرب إلى مصر بغرض السياحة أو الأعمال . برهانا على صحة موقفهم .

إن الطبيعى إذا أن يؤيد المصريون الرئيس حين يصرح بأن سياسته تهدف فيما تهدف إلى تلقين درس للزعماء العرب الذين مازالوا يعيشون فى الماضى . ولا يقدرون على الاطلاق عمق أفكارهم العميقة .

وهذا الموقف لايتناقض مع الرغبة الملحة بأن مصر مضطرة فى الدنى البعيد . إلى إعادة الحضور مع العالم العربى . فالتصور المصرى يرى أن من واجب مصر إرشاد العالم العربى إلى الطريق دون الانفصال عنه . لذا فإن اختيار الدول العربية عن السير فى خط السياسة المصرية - خلاف معارضتها فى المرحلة الأولى - يعتبر مشكلة عابرة

إن موقف حكومة إسرائيل فى مسألة الحكم الذاتى وتصرفاتها فى الضفة والقطاع تؤدى إلى تطوير اقتصادها وتقدمها الاجتماعى . وإلى القاء اعبائها على الدول العربية ولعب ماجره استمرار الصراع المسلح وتصعيده من دمار وويلات (رغما فى ذلك الخطر الذى فى رأى بعض المصريين) .

أما على المستوى الفكرى فالغاية هى تمكين مصر من بلورة ثقافتها وتطويرها من جديد وبذلك تندمج سياسة السلام عضويا بالخطوط العريضة الاستراتيجية الشاملة لنظام الحكم فى مصر .

هكذا فإن السلام مع إسرائيل يقوم على أساس من المصالح المشتركة . وليس على تجارب ايديولوجى . فالمصريون لم يسلموا بالمبادىء الأساسية للحركة الصهيونية . كما أن مصطلح « الصهيونية » عند ذاته مازال يحمل فى طياته دلالات سلبية عندهم . وهناك بعض المصريين الذين يحاولون تسوية هذا التناقض القائم بين الطلمانية والايديولوجية عن طريق « التسويغ المنطقى » rationalization القائل بأن السلام بالذات هو الذى سيؤدى إلى تلاشى إسرائيل كدولة صهيونية ولكن هذا الرغم ليس شائعا هذه الأيام . إن مستوى العرفة عن إسرائيل وثقافتها وتاريخها مازال ضعيفا للغاية

وكما يبدو جليا من كل هذا . فإن السلام الذى وقعت عليه إسرائيل كان سلاما مع مصر . لا مع

حيرة أمل كبير في مصر كما تثير قلقا مماثلا ان اتفاقية السلام مع إسرائيل ماتكون اتفاقية مفروضة في يوم من الأيام. وإذ كانت مسألة سيناء تهم المصريين أكثر من غيرها، فالجانب الفلسطيني في هذه الاتفاقية يثير هو الآخر قلقا من نوع خاص. كما أنه يثير الحالة sui generis للاتفاقية كلها. فصحيح أن المصريين لم يروا حلا محددا للقضية الفلسطينية في المستقبل القريب ولكنهم أدركوا، مع ذلك، بأن هناك شيئا ما على طريق الحل سوف يتبع توقيع الاتفاقية.

إن المصريين، على كافة المستويات، يشجبون بشدة التصور الإسرائيلي للحكم الذاتي، إذ هو يثير في نظرهم، من كل جانب، كل ما يتعلق بمستقبل الوضع في المناطق الذي يجري في رأيهم عن قصد. إن المستوطنات والمصادرات وطرق مواصلات المناطق والأجهزة الإدارية فيدعم والخطوات المشروعة بالنسبة للقدس، هي في رأيهم، اجراءات تهدف إلى سد الطريق أمام إمكانية التقدم في المسألة الفلسطينية كما تشكل عقبة خطيرة أمام بلوغ السلام.

في رأي مسئول كبير في الحكومة المصرية، أن تصرف إسرائيل في السنين الأخيرين منذ توقيع الاتفاقية قد أساء إلى سمعتها image أكثر مما فعلت الثلاثون سنة من الصراع. وعلى هذا الأساس تتعاظم الشكوك في مصر حول عملية السلام كما يسود التشاؤم بشأن مستقبله.

يشتد تقييم العلاقات على الجانب المصري في هذا الوقت بالذات. فهناك في مقدم قضايا الساعة التي تطلب تعاونا فوريا، كالسياحة والعلاقات التجارية والثقافية. وهذا الموقف لايعود إلى الرأي العام السلبي المتكون فحسب، والمصالح الايديولوجية للأوساط المختلفة التي تعارض هذا التطبيع، بل إلى توجيه السلطات أيضا. فهو رأي كثير من المصريين أنه مادامت إسرائيل تقوم بتطبيق معين لحكمها الذاتي وتفرضه في حوزته، فإن مصر بدورها ستقوم بتطبيق مفهوم تطبيع العلاقات التي تسرع إلى منته تحتوي جميع قنصل عملية استعداد كبير في مصر لتوقيع اتفاق يؤدي إلى تحديد التعاون والحوار بين شعبيه، إذا ما بدأت عملية السلام فعلا بما فيه مصلحة مصر وإسرائيل معا.

بيد أن المصري موقف إسرائيل الحالي قد أثر عملية تشجيعه، حيث تقل هذا العداء، على حد حاد، في تشجيع رئيس الحكومة يتمتع المصريون بتأييد رئيس الحكومة يتمتع بتصريحه عند على طريق السلام. ولايستبق في هذا الصدد لا الرئيس السادات الذي حاول المحافظة على علاقات عمل وثيقة مع بيجين فقد ذاب مؤخرا على إبداء رغبته في إزالة التوتر الذي ساد علاقاتهما الشخصية كما السبب تصريحاته عن بيجين بناء على ذلك. بالمقابل والتقدير، ولكن حتى الرئيس السادات يرى أن بيجين قد وصل إلى نهاية الطريق.

رغم هذه المشاعر السلبية فإن مصريين كثيرين يؤمنون بأن طريق السلام الشامل لم يسد نهائيا بعد. فهناك من يؤمن، مثل الدكتور بطرس غالي، بأن في الإمكان اتخاذ خطوة جازمة لتحسين جو العلاقات في المناطق بحيث تتوافر إمكانية التقدم إلى التسوية. ولكن من الواضح أن إيمانهم بذلك كان الرافعة في المناطق محدود للغاية. كذلك فإن إمكانية اشتراك الأردن في الحل كما يرى الرئيس السادات، لم تقع أبدا. فعلى الرغم من عقد التنديد الملك حسين فإنه يؤكد أن مصر لم تتخل عن مقررات الإسكندرية التي وقعت مع الملك حسين في يوليو ١٩٧٤، والتي تشير إلى حل لأزمة فلسطين. كذلك فإن الرئيس السادات يصرح بأنه يؤمن بإمكانية تطبيق الحكم الذاتي في قطاع غزة أولا ليكون نموذجا للمناطق الأخرى. وهو يؤكد، قبل كل شيء، أن لمناهلا إسرائيليا في الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس من شأنه أن يقدم عملية السلام. وأن يدفع بدول أخرى للمشاركة فيها.

وعلى هذا الأساس فإن مصريين كثيرين يرون أن تغيير الحكومة في إسرائيل وصعود حزب العمل إلى الحكم، سوف يؤديان إلى تجدد القوة الدافعة momentum فالقيادة السياسية في مصر، بعرف الآراء التي أدلى بها شمعون بيريز في مقابلاته الأخيرة في الصحافة العالمية. ومع ذلك، فإنهم ليسوا على يقين من السياسة التي سينهجها حزب العمل في الواقع، كما يرى كثيرون أنه لافرق في الواقع بين سياسة حزب العمل والليكود، رغم المواقف المعلنة.

على ضوء ماتقدم فإن المصريين يعتبرون الفترة الراهنة فترة انتقالية على الأقل حتى قيام الإدارة الجديدة في الولايات المتحدة. ويرغب المصريون في انتهاز هذه الفترة لتأكيد على التزامهم بالأهداف العربية، بما فيها مسألة القدس، كما يطمحون في اجتياز هذه الفترة دون مشاكل وأزمات لا لزوم لها. ولهذا فقد كان الغرض الأساسي في حديث الرئيس السادات هو الدعوة إلى تهدئة الخواطر وتفادي التسرع والتوقيع بتقدم عملية السلام رغم كل المصاعب.

إن تدهور العلاقات بين مصر وإسرائيل قد جعل من الممكن، حتى في الفترة الانتقالية، أن تتخذ مصر خطوات انفرادية، كتجميد المفاوضات أو تعليقها وماشابه. ولكن يبدو أن خطوات كهذه أبعدا ستكون في إطار السياسة الشاملة، دون التراجع مبدئيا عن عملية السلام. صحيح أن الرئيس السادات يستطيع نظريا التراجع مبدئيا عن عملية السلام، إذا كان الأمر متعلقا بالوضع الداخلي في مصر والوضع العربي عامة. ولكن خطوة كهذه تتعارض مع منطق سياسته كلية.

إن التحديد البارز في موقف مصر اليوم، بالنسبة للسنة الماضية، هو التأكيد الشديد على مسألة القدس. وأسباب تصدر هذه المشكلة هي اجتماع الاعتبارات العربية المذكورة آنفا، وتصريحات حكومة إسرائيل معا. فالرئيس السادات لايعتبر التقدم في مشكلة القدس مناقضا لاستراتيجية الخطوة بعد الخطوة. كما يرى أن مشكلة القمة والقطاع أكثر تعقيدا من مشكلة القدس، حيث يمكن للعرب أن يوافقوا على أن تكون المدينة العربية عاصمة إسرائيل. وظل المدينة موحدة كما بقي الأماكن المقدسة لليهود في شرق المدينة تحت علم إسرائيل. وعلى كل حال، فإن مشكلة القدس إذا أتيت احتلت مكانة كبرى في وعي الجماهير المصرية. فانتقلت من مسألة هامشية إلى مسألة متوقفة وإلى عقبة على طريق السلام.

وهناك عقبة أخرى تتمثل في الترقبات التي ظهرت في الجماهير المصرية في بداية عملية السلام حول التحسن الفوري في مستوى المعيشة والوضع الاجتماعي السياسي في الداخل. فمن الطبيعي أنه لايمكن موضوعيا تحقيق هذه الإصلاحات بين عشية وضحاها. وهنا يكمن الخطر في موقف الجماهير من السلام. ومن ناحية أخرى فإنه ليس من الصعب الإشارة إلى الفائدة التي قد جنتها مصر من عملية السلام. وإلى أن دفعة التطور الحالية، في ميادين شتى، لم يكن من الممكن تخيلها في ظروف الصراع المستمر. كما تستطيع الأوساط الواعية في الجمهور المصري تقدير مدى الأضرار في الاقتصاد والأجهزة الداخلية التي تجنبها مصر بالتوقيع سياسة السلام. ولكن هذا التقدير لايتعدى هذه الأوساط إلى الجماهير الشعبية الواسعة.

هناك صعوبة أخرى في عملية السلام تتعلق بصورة إسرائيل لدى المصريين. فقد كان السلام الذي أحضره الرئيس السادات، برحلته التاريخية إلى القدس، «سلاما» من خلال القوة، سلاما بين قادة أقوياء ودولتين قويتين توصلتا إلى النتيجة بأن إحداهما لاتقدر على فرض الحل بالقوة على الأخرى. ولهذا فإن قوة إسرائيل، وكذلك قوة مصر، كانت منذ البداية ركنا من أركان عملية السلام. وإنها لظاهرة غير القلق أن تكتشف إسرائيل، خلال السنتين الأخيرتين، أمام الأعين المصرية الفاحصة، عوامل ضعف داخل يصر بصورتها القوية.

أخيرا فإن أكثر مايثير الرأي العام من خلال الحديث مع المصريين، بعد التعرف إليهم عن كثب ولوقت غير قصير، هو أن يدرك مدى إعجاب المصريين العظيم برحلة الرئيس التاريخية إلى القدس، وبالقوة الفائقة التي كانت لهذه الرحلة في توجيه التطورات في علاقات مصر وإسرائيل.

إن المصريين يحدثونك مرة بعد أخرى كيف أثمرت رحلة الرئيس التاريخية جوانبها وكيف أحدثا معا ماسيار النظام الإقليمي القائم في الشرق الأوسط.

الوضع الذي يشكل الصراع مع إسرائيل القلب منه والمركز، وكيف بات أفضل إلى أن يقوم بدلا منه وضع جديد تماما تكون في مركزه الأهداف البناءة.

وهناك من يضيفون أنهم أدركوا بأن إسرائيل ومصر ستكونان في مركز الوضع الجديد إذ هما أكثر دول المنطقة قوة وتطورا. والدولتان الوحيدتان الجديرتان بهذا الاسم.

من كل ماتقدم يبقى الرأي الطاغي قويا بأنه وإن كانت عملية السلام لم تجد لدى مصريين كثيرين الصواب الذي يلف مصير الدولة اليهودية. فإن مبادرة السلام قد خلقت في بدايتها جوا ملائما كان يمكن لإسرائيل فيه أن تحظى بالاعتراف بشرعيتها في المنطقة، ويتدبر المصريون باستمرار إلى الحل الذي يجب على إسرائيل، في نظرهم، أن تدفعه في سبيل حدوث هذا التحول: اتفاقية مع الفلسطينيين. في رأي أحد المثقفين المصريين البارزين: «أن تذكرة دخول إسرائيل إلى نادي الشرق الأوسط هي أن تثبت رغبتها وقدرتها على التعايش مع الفلسطينيين بسلام». ومع الأسف في الأسابيع الأخيرة، احتلت الشكوك تساور مصريين كثيرين حول رغبة إسرائيل وقدرتها على تحقيق ذلك.

إن الصورة الشاملة من هذه الانطباعات لاتبعث على الرضا والسرور. إن عملية السلام تفقد من قوتها الدافعة شيئا فشيئا، كما تفقد جذورها في وعي وجماهير المصريين والإسرائيليين معا. ومما يثير القلق بشكل خاص أن تبين الون التنامي بين القوة الكبيرة لعملية السلام في البداية وصورتها الضئيلة اليوم.

إن توافق الظروف الرائعة اليوم، في مصر والمنطقة، يتيح الفرصة للتقدم نحو السلام الذي كان حلم إسرائيل دائما وأبدا.

إن هذه الفرصة وإن كانت غير أكيدة تماما، لجديرة بسياسة إسرائيلية بعيدة النظر، تتناولها وتحاول استغلالها حتى النهاية.

وإنه لمن الصعب على المرء أن يتخلص من الإحساس بأن إسرائيل، هذه المرة، قد تغلق بيدها هي، هذا الباب الذي انفتح، وتفوت هذه الفرصة المواتية.

□

انور السادات: حل أولي لقضية فلسطين

د. بطرس غالي: تحسين جو العلاقات

شمعون بيريز: مقابلات في الصحافة العالمية